يوم في الحمام

بدأت استعداداتها ليوم غد المختلف والمألوف كعادتها كل سبت، بجمع ملابسها الداخلية والخارجية في حقيبة مخصصة لرحلتها الأسبوعية التي لا تُخلفها مهما كان. وأحضرت 'السطلين' الورديين والكرسي وأشياء الاستحمام، صابون و'شامبوان' من كل الأنواع والأشكال ثم خلدت إلى النوم لتستيقظ في الصباح الباكر على الساعة السابعة وتحمل رَحلها وتنطلق. استغرقت الطريق نصف ساعة، وحين وصلت سلمت على 'الطيّابات' جميعا؛ تعرفهن بالأسماء والتفاصيل وهن أيضا يعرفنها ويحسبن حسابها كعضو خاص في صنف النساء الحيزبونات، شديدات البطش.

-السلام 'حادة'، كيف الأحوال؟ بخير؟وصاحب المنزل والأولاد والكل بخير؟ وأنتِ؟ انطلقت الأسئلة من فم إحدى 'الطيابات' بسرعة وتتابع لا ينتظر جوابا حقا وإنما هي العادة.

-بخير ولله الحمد، لكن محمدا أصيب في رجله خلال مباراة لكرة القدم.لقد جعلني أركض طوال الأسبوع في المستشفى، لذا أحتاج إلى حمام طويل.

-لا بأس عليه، يا لك من مسكينة. هؤلاء الأولاد حقا سببُ شقائنا وقلّة صحتنا، لا نتائج دراسية مفرحة ولا يتركون لك بالا هانئا.

-فعلا، لقد ظللت أصرخ عليه حتى بح صوتي أن يترك هذه اللعبة اللعينة لكنه يُعيرني أذنا صماء؛ يركض إليها كل يوم كالمسحور ويأتي في آخر النهار مليء بالغبار و مبللا بالعرق، يوسِّخ كل ما يمر به ويتركني أنا للتنظيف بعده. شكواي لله.

-هذه حالنا جميعا عزيزتي ولا نملك غير الصبر، سمعت أن جارتك سميرة زوَّجت ابنتها ولم َتدْعُ أيّا من نساء الحي؟

-أنت أيضا وصلتك أخبار هذه الفضيحة، يقال...

وهكذا مّرت ساعتان من القيل والقال في غرفة تبديل الملابس،قبل أن تدلف إلى الحمام الذي ما إن فتحت بابه حتى تلقفها البخار اللافح وابتلعها إلى أعماقه . وجدت أنه ممتلىء إلى أكثر من النصف لكنها حصلت على مكانها بسهولة لأنها من جلاّس 'البرمة'، وهي أشد الغرف سخونة ولا تدخلها إلا القادرات من النساء. اتخذت مكانها فوق قطعة 'الجلدة' وملأت 'الأسطل' بالماء الحار تقريبا؛ أرخت شعرها وطلته بعجائب الخلطات من ثوم وخل وغاسول وغيرها...كل من يضيف إلى معلوماتها وصفة لعلاج عيب ما في الشعر كالقَرَع أوالقشرة، تستجيب له بإضافة مقدار إلى ما لديها أصلا، وهكذا صار شعرها المدهون يفوح بروائح دكان عطار كبير.

انتقلت إلى جسدها فضمَّخته بالصابون البلدي وصبت عليه الماء ثم تمددت على الأرض الساخنة تطلب ارتخاء الأوساخ لتستطيع إزالتها بسهولة، وأخذت تدير عينيها في كل حدب وصوب تراقب النساء في اغتسالهن الدؤوب، تسترق النظر إلى كل زاوية وتفصيل في أجسامهن المختلفة الأحجام والأشكال، تحفظ العيوب لتستعملها في شجاراتها الدائمة فتبقى ترن في الأسماع طويلا؛ منهن من تعرفها فتلقي عليها بالسلام ويخضن في الحديث ومن تتعرف عليها لأول مرة وتفعل معها نفس الشيء، فالنميمة لا تتطلب المعرفة الطويلة ولا الاتفاق المسبق، إنها فقط عادة تجد مكانها بمجرد انطلاق كلمة ' هل تعرفين أن...' من فم إحداهن.

مرت ساعة كاملة، بعدها حملت 'الكيس' وتجهزت للجهاد الأكبر. مرَّرته على جميع أطرافها بشدة تترك الجلد محمرًا ومحتقنا بالدم،فتخرج الأوساخ في شكل دودة طويلة وبألوان متغيرة، تحمل الأطراف المترهِّلة وتمرر تحتها باحترافية لم تترك شبرا إلا وفركته، ونادت على جارتها لتتولى ظهرها بعد أن فعلت معها المثِل. استغرق ذلك ساعتين أخريين ثم انتقلت إلى شعرها فأرخته ومررت المشط فيه وهي تصب الماء باستمرار تزيل خلطتها الخانقة.

-آختي عافاك... رَاك كَترشِّينا.

قالتها إحدى الجالسات بقربها وهي تجعِّد أنفها اشمئزازا من الرائحة. لم تصدق حادَّة أذنيها، كيف لهذه العصا النحيفة أن تتجرأ على قول هذا؟

-إوَا...هدا راه الحمام، ياكما بْغِتيني نْرشّ الريحة...وإلا ما عْجبك حال نوضِ من هنا...

-أشنو، شْكون نتي كاع؟ يا...

-أنا هي لّغتَربِّيك...

و نهضت لِتريها بالفعل سبب هيبتها بين ساكنات ذلك الحمام الشعبي اليتيم بين عدة أحياء؛ وانطلق مسلسل شد الشعر والرفس وكل أنواع السباب الفاحش من الطرفين. صرخت غريمتها ألما لكنها لم تتراجع وتدخلت بينهما نساء وأخريات اتخذن جلسة الفُرجة إلى أن تمكنَّ من تفريقهما وكل واحدة تُرغي وتُزبد. أخذت النساء يطيِّبن خاطرها وهي تلعن الشابات قليلات الاحترام وأخريات حملْن أشياء الأخرى لتجلس بعيدا عنها وهن يهمسن في أذنها أشياء عن معارك 'حادة' المتكررة وضرورة تجنبها. انتهى الاشتباك وظلت كلتاهما تطلقان سهام الكلام بين لحظة وأخرى وكلٌ ُتشهِد نساء الحمام على مظلمتها، والجميع في حالة تأهب لشوط ثان قد ينطلق.

أخذت حادة ترغي 'الشامبوان' في كل الأنحاء دون أن تعترض إحدى المحيطات بها، وأعادت جولة ثانية لحك جسمها وأخرى لفرك شعرها وثالثة أيضا. دخلت نساء وخرجت أخريات وتبدلت وجوه من حولها عدة مرات قبل أن تقرر الخروج هي أيضا. ارتدت معطف الحمام الأبيض ولفت شعرها الكثّ في فوطته البيضاء ودلفت إلى غرفة الملابس وهي تشكو من التعب وكبر السن الذي جعلها غير قادرة على إيفاء الحمام حقه.

كانت السماء مظلمة حين خرجت إلا من النجوم ووجهها الذي لمع كالوميض؛ حملت الحقيبة على كتفها الأيسر و'الأسطل' بين يدها وجنبها الأيمن وانطلقت راجعة من طريق ستشهد عودتها الأسبوع القادم في موعد لاتُخلفه أبدًا.